صناعة المثال في الدّرس النّحوي الأندلسي

أ. ويزة أعراب

مقدمة:

تعتبر الأندلس موطن سلم تحتي الإمارة الإسلامية فقد تعايشت العديد من اللّغات، مع اللّغة العربيّة في الأندلس (اسبانيا حالياً)، حيث كانت محل التقاء شعوب من مختلف الجنسيات منهم: الايبيريين، والسلتيين، واللاتينيّين، واليونانيين، والقرطاجيين، والفنيقين، واليهود، والفندال، والقوط وهم شعوب الطبقة السائدة عندما دخلها البربر والعرب. كما وفدت إليها فيما بعد عناصر بشرية متعددة أهمها العنصر الصقيلي. استطاعت اللّغة العربيّة الصمود أمام المنافسة القوية للّغات المجاورة والمزاحمة لها بتقديم ما هو أفضل للمتعلمين، ولا ريب في أنّ للناحية السياسية والدينية أثرهما في احتفاظها بقوتها وسيادتها وريادتها. ولقد ظهرت هذه العناية البالغة في أسلوب التّعليم الذي اتبعه الأندلسيين للمبتدئين، ورغم الصراعات والانقسامات السياسية الكثيرة التي عاشتها بلاد الأندلس إلا أنّ الناحية العلمية باتت مستمرة ورائدة، وهذا دليل على وعي الأندلسيين بأهمية العلم والعلماء فأوجدت تعددًا في المساجد والمراكز الثقافية والمدارس. فبعد أن كانت قرطبة القطب الأساسي في اجتذاب العلماء أصبح ينافسها كثير من المدن؛ منها إشبيلية لأصحاب الميول الأدبية، وبلاطي بني ذي النون في طليطلة وبني هود في سرقسطة لأصحاب الميول العلمية، وكانت بينهما المباهاة بجمع أكبر عدد من العلماء المشهورين في مختلف العلوم، وبلاط العامرين في دانية لأصحاب الميول في الفقه والحديث واللّغة وكانت ميزة لهذا البلاط. ولأنّ أغلب سكان الأندلس يودون تَعلّم اللّغة العربيّة لأنّها كانت لغة اكتساب العلوم أنذك فمن أراد العلم فعليه بالعربيّة ولن يكون لهم ذلك إلا بتعلّم قواعد النّحو، فكما ذكرنا سابقًا فهذه اللّغة لم تكن اللّغة الأم لأغلب السكان وعليه لا يمكن اكتسابها بالفطرة، وعليه اجتهد علماء الأندلس من أجل ازدهار هذه اللّغة وفرضها في الأندلس لأنّها لغة علم وعلماء، ومن أجل تحقيق ذلك استعمل أئمة الأندلس المثال لتدريس القواعد، حيث حاولوا تيسير الدّرس النّحوي وتقديمه إلى الطالب بأيسر الطرق الممكنة، فما مكانة المثال في الدّرس النّحوي الأندلسي؟ وكيف استعملوه من أجل تبسيط الدّرس النّحوي؟ ولقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي المقارن بهدف تقديم عرض شامل لواقع الحياة العلمية الأندلسية وما شابها من تطور وتقدم، وإبراز الجهود المبذولة في سبيل التجديد والإبداع العلمي والفكري الأصيل.

كيفية تعليم الأولاد اللّغة العربيّة في الأندلس:

يقول ابن خلدون في حديثه: في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه "... وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التّعليم. إلا أنّه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدّين والعلوم جعلوه أصلا في التّعليم. فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربيّة وحفظها وتجويد الخط والكتاب.."[١] ويواصل القول في التّعليم في الأندلس ويقول" ولا تختص عنايتهم في التّعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدّا بعض الشيء في العربيّة والشعر والبصر بهما و برز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم. لكنّهم ينقطعون عن ذلك لانقطاع سند التّعليم في آفاقهم ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التّعليم الأول. و فيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد إذا وجد المعلم."[٢] ويقول ابن خلدون: " وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التّعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربيّة من أول العمر، حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللّسان العربي."[٣] فهم يجعلون القرآن أصلاً في التّعليم ويخلطون ذلك بقوانين العربيّة ويعلّل ابن خلدون هذه الملكة باعتماد الأندلسيين على حفظ الأصول حيث يقول:

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

"لأنّ أهل اللّسان العجمي إنّما هم طارئون عليهم وليست عجمتهم أصلاً للّغة في الأندلس"٤.

بين علماء الأندلس والمشرق العربي:

لقد أحبَّ علماء الأندلس العلم فهم يبحثون عنه في المشرق العربي، ولقد أحبّ المشارقة الأندلس فهجروا إليها حاملين إليها العلم، فهجرة الأندلسيين للأخذ عن علماء اللّغة في المشرق العربي، ساعين للحصول على أكبر قدر من العلم والكتب اللّغوية. وكذلك هجرة بعض المشارقة من علماء اللّغة إلى الأندلس حاملين معهم أهم الكتب التي ألّفت في اللّغة العربيّة. ولقد شبه يوسف عيد الرحلات بين المشرق والأندلس في كتابه ويقول: " كانت الأندلس والمشرق أشبه بأرض واحدة فيها " النمل" ذهابًا وإيّابًا، علماء يضيق بهم الشرق من الفقر فيرحلون إلى الأندلس، وعلماء من الأندلس يعوزهم العلم فيأتون الشرق. غير رحّالي الشرق أقل عددًا من نظرائهم الأندلسيين ومنهم أبو جعفر أحمد بن هارون البغدادي وقد جلب معه بعض كتب ابن قتيبة وبعض كتب عمرو بن بحر الجاحظ"٥ .

مناقشة قضية المدرسة في الأندلس:

في بداية البحث كان علماء العرب حين حديثهم عن نحوي فينسب إلى مكان سكناه، فيقال " من أهل البصرة" بصري، ومن "أهل الكوفة" كوفي، ثم استعملوا مصطلح مذهب للدلالة على المذاهب النّحوية فيقال المذهب البصري، المذهب الكوفي، والمذهب في اللّغة هو الطريق والسبيل، وفي الاصطلاح هو مذهب العالم سواءً كان في العقيدة أو في الفقه أو في أصول الفقه وفي علوم الحديث أو في اللّغة العربيّة أو غيره من العلوم الشرعية. وكذلك المذهب لغتًا: مكان الذهاب وهو الطريق، والذهاب: السير والمرور، والمذهب: مصدر كالذهاب، وذهب به وأذهبه غيره: أزاله، والمذهب: المتوضأ؛ لأنّه يذهب إليه. والمذهب: المعتقد الذي يذهب إليه"٦. واصطلاحًا: الأحكام التي اشتملت عليها المسائل شبهت بمكان الذهاب بجامع أن الطريق يوصل إلى المعاش، وتلك الأحكام توصل إلى المعاد أو بجامع أن الأجسام تتردد في الطريق، والأفكار تتردد في تلك الأحكام، ثم أطلق عليها المذهب استعارة مصرحة. أي: استعارة تصريحية تبعية بأن شبه اختيار الأحكام بمعنى الذهاب واستعير الذهاب لاختيار الأحكام، واشتق منه مذهب بمعنى أحكام مختارة، ثم صار حقيقة عرفية حكاه المحشي عن شيخه، والبجيرمي"٧. ويطلق المذهب عند علماء الفقه على الأحكام الفقهية المستفادة من أدلتها بطريق الاجتهاد، ويطلق المذهب في الحقيقة على ما ذهب إليه إمام المذهب من الاختيارات والأحكام المنسوبة إليه، فالمذهب بالمعنى الحقيقي يطلق على فقه إمام المذهب، فمثلا: فقه الإمام أحمد ..."٨ أما مصطلح المدرسة فهو حديث النشأة، فنقول المدارس النّحوية والتي هي مدرسة البصرة والكوفة، والبغدادية، والمصرية والأندلسية؛ ولكن هناك الكثير من المحدثين ممن ينكرون مصطلح المدرسة على الأندلس ويقولون بالدّرس النّحوي في الأندلس، لكن الزمن والحجة بينوا أنّ للأندلس مدرسة وهي مدرسة في تعليم النحو، حيث حاولوا تيسيره وتقديمه لمتعلم اللّغة العربيّة كلغة ثانية، تعليم النحو العربي للناطقين بغير اللّغة العربيّة.

اهتمام المجتمع الأندلسي بالعلم:

يقول الله عز وجل في محكم تنزيله: ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾٩، ويقول عليه الصلاة والسلام:" مَنْ سُئل عن علم (علمه) ثم كتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار"١٠، ويقول عليه الصلاة والسلام: " طلب العلم فريضة على كل مسلم"١١ حب العلم ونشره في نفوس علماء الأندلس كأنّه استعداد فطري أو طبيعة جبلوا عليها، يقول يوسف بن علي بن إبراهيم العريني نقلا عن المقري: " ... فالواحد منهم يطلب العلم، لا لكي يحصل على عائد مادي أو جاه اجتماعي، بل بباعث من نفسه يدفعه إلى التفرغ له، وبذل الغالي في سبيله."١٢ ويمكن تقسيم حياة العالم الأندلسي إلى مرحلتين هما: مرحلة التحصيل وفيها يبحث العالم عن العلم بشراء الكتب وحضور حلقات التّعلم ويسافر إن اضطر إلى ذلك، ويأخذون العلم من الصغار والكبار، فالعلم عندهم ليس لديه حدود ولا عمر معين لتحصيله، " ... كما أنّ العلماء لم يكونوا يستنكفون أن يأخذوا العلم حتى عن طلابهم، فقد كان أحمد عبد الرحمن القضاعي (ت: ٦٥٧ه) شديد الشغف بالعلم، حريصًا عليه، لا يأنف من استفادته من أي مصدر كان حتى ولو من أصغر تلاميذه يقول عنه تلميذه محمد بن عبد الملك المراكشي (ت: ٧٠٣ه): أنّه ذاكرني بمسائل وأنا

ابن ست عشرة سنة أو نحوها، فذكرت له ما عندي منها ثم بعد حين وقفت عليها مقيدة بخطة، وقد ختمها بقوله: " أفادنيها الطالب الأنجب الأنبل أبو عبد الله بن عبد الملك حفظه الله"١٣. وكانوا لا ينكرون أبدًا أحدًا أخذوا عنه العلم، فهم يتواضعون في طلبهم للعلم وفي تعليمهم لطلابهم ويطبقون توجيهات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم " الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها"١٤، و" أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علمًا ثم يعلمه أخاه المسلم"١٥، ونجد كتب التراجم تروى الكثير من القصص التي تبين أنّ الدافع الذاتي للتّعلم يدفع المتعلم إلى التفاني في طلب العلم، من ذلك القصص التي حكاها محمد بن عبد الملك المراكشي في مؤلفه؛ ثم تليها مرحلة العطاء: لقد اقتدى علماء الأندلس بنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم في طريقة تلقينهم العلوم حيث " ... كان المسجد مركزًا علميًا يجمع المسلمين أمام معلمهم الأول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يلقى عليهم ما جاءه من وحي السماء..." ١٦ واقتدى المسلمون بعد عصر النبوة بنبيهم في إعطاء المسجد أول ما يُبدأ به، ويكون هو المركز الذي تصب في طرقات المدينة، وذلك حتى يتسنى لجميع الناس الوصول إليه دون عناء فالمجتمع الإسلامي بكل فئات في حاجة إلى هذا المكان."١٧ " ولم يقتصر دور المسجد العلمي على إقليم دون آخر بل كان يضطلع بهذا الدور في كل البلاد الإسلامية ومنها الأندلس، بل قد يكون دور المسجد العلمي في الأندلس يفوق دوره في مشرق العالم الاسلامي، وذلك لأنّ هذه البلاد شهدت في عصور مبكرة ظهور المدارس كمؤسسات تعليمية نافست المسجد"١٨ وكان علماء الأندلس في رحلاتهم التجارية يستغلون تواجدهم في مناطق معينة لتقديم دروسهم حيث " كان علي بن محمد بن خروف (ت: ٦٠٩ه) إذ كان كثير التجوال في بلدان الأندلس والمغرب مشتغلاً بتجارته، فمتى حلّ ببلد انتصب لتدريس ما لديه من المعارف"١٩ "... وكان العلماء يخصصون لكل علم حلقة، ويرتبون ذلك إما على مدار اليوم أو على مدار الأسبوع، وذلك لأنّ الحياة العلمية في العصور، لا تعرف ما نعرفه في وقتنا الحاضر من تخصص العالم في فرع من فروع المعرفة، بل إنّ العلم يكون على علم ودراية بأكثر من فرع، وبالتالي فإنّه في تعليمه تكون له أكثر من حلقة، فقد كان أحمد بن محمد بن إبراهيم الكتامي (ت: ٦١٠ه) يقرئ القرآن، ويروي الحديث ويعلمه، ويدرس علوم العربيّة في حلقات بجامع قرطبة، وتخرج على يديه في هذه العلوم أعداد كبيرة من الطلبة من مختلف المدن الأندلسية"٢٠ " ...بينما وجد من العلماء من جعلوا مواسم سنوية لإسماع بعض الكتب، فقد عين شريح بن محمد الإشبيلي (ت: ٥٣٩هـ) شهر رمضان من كل عام لقراءة صحيح البخاري ولعلو رواية شريح ولرغبة الناس في الأخذ عن عالي السند، فإنّ طلاب العلم كانوا يزدحمون عنده في هذا الشهر من كل سنة"٢١، وكل هذا لأنّه " وردت نصوص كثيرة تحذر من كتمان العلم وخاصة ما فيه ضرورة للناس منها قول الله تعالى: ﴿ إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾٢٢ ؛ وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " من سُئل عن علم وكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار"٢٣ وكانت أوقات الدراسة تخضع في تحديدها لعدة عوامل منها: ما ورد عن النّبي الكريم صلى الله عليه وسلم في الحث على البكور في جميع الأعمال الحياتية، حيث يقول عليه الصلاة والسلام: " اللّهم بارك لأمتي في بكورها"٢٤. ويقول الخليل بن أحمد موجهًا المعلم للاستفادة من تعليمه:" اجعل تعليمك دراسة لعملك، واجعل مناظرة المتعلم تنبيهًا على ما ليس عندك"٢٥، "... ولقد كان العلماء يغلبون مصلحة الطالب على مصالحهم الشخصية، فهذا عبد الله بن فرج الأنصاري الوراق (٥٧٩ه) شيخ مقعد لا يستطيع الخروج من داره، ولديه علم يريد أن يبذله لمن يحتاجه، فكان يستقبل طلاب العلم في داره، ويهيء لهم الأسباب من أجل أن يستفيدوا من علمه، وكذلك علي بن محمد بن هذيل (ت: ٥٦٤ه) كان صدر المقرئين وإمام المجودين عمر حتى جاوز التسعين سنة، ومع ذلك فقد كان طلاب العلم يقصدونه ليلاً ونهارًا حتى في غير الأوقات المعتادة للدّرس، وهو لا يسأم ولا يضجر، بل يستقبلهم بوجه طلق، وصدر منشرح، ولا يضن عليهم بعمله حتى في أوقات راحته... والعالم الأندلسي يحرص على اقتطاع جزء من وقته لتدريس ما لديه من علم، لا يمنعه من ذلك انشغاله بعمله الرسمي كالقضاء مثلاً... ولقد كان التعليم بالمجان، هو المبدأ الذي اتبعه معظم علماء الأندلس ولا شك أنّ ذلك من أهم العوامل التي ساعدت الكثير من طلاب العلم على الاستفادة من هؤلاء العلماء

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

دون حرج، فليس كل طالب علم قادرًا على دفع المال ليتعلم، وكان أبو عبد الله الشلوبين (ت: ٦٦٠هـ) محتسبًا في تعليمه، لا يأخذ الأجر من طلبته، مقتصرًا في معيشته على نتاج أملاك كانت له قلت أو كثرت."[٢٦]

مصطلح المثال عند نحاة الأندلس:

ما بين الشاهد النّحوي والمثال:

يقول صاحب معجم المصطلحات النّحوية والصرفية في تعريف الشاهد: " هو قولٌ عربي لقائل موثوق بعربيته يورد للاحتجاج والاستدلال به على قول أو رأي"[٢٧] وعليه بنيت القواعد النّحوية، فالنحاة الأوائل يستشهدون بكلام العرب، والقرآن الكريم... وكثيرًا ما يحرفون القاعدة النّحوية لتتماشى مع الشواهد النّحوية، ويقول في تعريف المثال النّحوي: " ما يستدل به على القاعدة النّحوية من جملة أو تراكيب أو كلمة"[٢٨] ويقول علي أبو المكارم: " فهو شرحٌ للقواعد النّحوية بأمثلة دون أن تكون هذه الأمثلة المصدر الذي انبنت عليه واستحدثت منه"[٢٩] وذُكر في معجم المعاني: مِثال: اسم، الجمع : أَمْثِلَةٌ ، ومُثُلٌ ، المِثَالُ : القالَبُ الذي يُقَدَّرُ على مثله، المِثَالُ: صورةُ الشيء التي تمثّل صفاته، على مثاله : على منواله، المِثَالُ: شاهد يذكر لإيضاح القاعدة، قدوة يحتذى به"[٣٠] والمثال النّحوي المصنوع يخضع لفلسفة تربوية للدولة التي يُستعمل فيها، يتضمن حقائق علمية وتاريخية تثير اهتمام المتعلم، وينمي عقله، ويشتمل الجوانب الأخلاقية والعقائدية، ويكون قريب للمتعلم على حسب المستوى الدراسي.

أ- مصطلح المثال عند ابن مضاء القرطبي:

ذكر بن مضاء مصطلح المثال في كتابه الرّد على النحاة عدة مرات منها في حديثه عن إلغاء العامل حيث يقول: "ومما يجري هذا المجرى من المضمرات التي لا يجوز إظهارها، ما يدعونه في المجرورات التي هي إخبار أو صلات أو صفات أو أحوال مثل (زيد في الدار، ورأيت الذي في الدار، ومررت برجل من قريش، ورأى زيد في الدار الهلال في السماء) فيزعم النّحويون أنّ قولنا في الدار متعلق بمحذوف تقديره (زيد مستقر في الدار) والداعي لهم إلى ذلك ما وضعوه من أنّ المجرورات إذا لم تكن حروف الجر الداخلة عليها زائدة فلا بدّ لها من عامل يعمل فيها إن لم يكن ظاهراً كقولنا (زيد قائم في الدار) كان مضمراً كقولنا (زيد في الدار). ولا شك أنّ هذا كله كلام تام مركب من اسمين دالين على معنيين بينهما نسبة وتلك النسبة دلت عليها (في) ولا حاجة بنا إلى غير ذلك. وكذلك يقولون في (رأيت الذي في الدار) تقديره (رأيت الذي استقر في الدار) وكذلك (مررت برجل من قريش) تقديره (كائن من قريش) وكذلك (رأيت في الدار الهلال في السماء) تقديره (كائناً في السماء). وهذا كله كلام تام لا يفتقر السامع له إلى الزيادة (كائن ولا مستقر) وإذا بطل العامل والعمل فلا شبهة تبقر لمن يدعي هذا الإضمار. ومما يجري هذا المجرى ما يدعونه من أنّ في أسماء الفاعلين والمفعولين والأسماء المعدولة عن أسماء الفاعلين والمشبهة بها، وما يجري مجري مجراها ضمائر مرتفعة بها، وذلك إذا لم ترتفع بها هذه الصفات أسماء ظاهرة مثل (ضارب ومضروب وضراب وحسن) وما جرى مجراها، وقالوا: أنّها ترفع الظاهر في مثل قولنا (زيد ضارب أبوه عمراً) فإذا رفعت الظاهر. فالمضمر أولى أن ترفعه، وقد بطل ببطلان العامل أنّها ترفع الظاهر. وإذا كان ضارب"[٣١] فكما نلاحظ بعيداً عن العامل، فالأمثلة التي قدّمها بن مضاء بسيطة جداً، فيمكن أن نستعمل الخيال ونعتبر مجمل الأمثلة التي قدمها عبارة عن نص قصير متكامل واضح فهو يقول: " زيد في الدار، ورأيت الذي في الدار، ومررت برجل من قريش، ورأى زيد في الدار الهلال في السماء" ربّما فيه بعض الانقطاعات لكنّ هذا النص للمتعلم الغير ناطق باللّغة العربيّة سيكون النّص عنده أكثر وضوح، وذلك بغياب الضمائر المستترة، والمضمرات، فكل المفردات ظاهرة وواضحة للسامع والمتكلم (فالخطاب بين متكلم ومستمع مثالي) فكما صرح بن مضاء في قوله: " وهذا كله كلام تام لا يفتقر السامع له إلى الزيادة"[٣٢] فالأمثلة المطروحة في النص في متناول السامع. " فإن قيل: فما تقول في مثل (زيد قام) إذ قالوا: في قام ضميراً فاعلاً؟ وليس داعي يدعو إلى ذلك غير قول النّحويين: الفاعل لا يتقدم، ولا بد للفعل من فاعل. وقولهم هذا لا يخلو من أن يكون لا يجوز إظهاره." والفعل الذي بهذه الصفة لابد منه، ولا يتمّ الكلام إلا به، وهو الناصب، فلا يوجد منصوب إلا بناصب. وإن كانوا يعنون بالمضمر الأسماء، ويعنون بالمحذوف الأفعال، ولا يقع الحذف إلا في الأفعال أو الجمل لا في الأسماء، فهم يقولون في قولنا (الذي ضربت زيد) إن المفعول محذوف تقديره ضربته. فإن فُرِّقَ

بينهما بما هو مقطوع بأن المتكلم أراده، وبما يظن أن المتكلم أراده ويجوز أن لا يريده، فهو فرق، لكن إطلاق النحويين لهذين اللفظين لا يأتي موافقاً لهذا الفرق. والذي يجيء أن يعتقد في مثل (زيد قام) أنّه يجوز أن يريد المتكلم إعادة الفاعل، ويجوز أن يكتفي بما تقدم، والأظهر أن يكتفي بما تقدم. هذا إذا كان في كلام الناس، وإما في كلام البارئ سبحانه، فالإضراب عن إثباته ونفيه واجب، لأنّه لا يوجد فيه دليل قطعي، ولا حاجة بنا إلى القول بالإثبات والإبطال فيه."٣٣ في هذا النص لقد فرق بن مضاء بين الأمثلة المستوحاة من القرآن الكريم (وفي الحقيقة القرآن الكريم يحتج به فهو من الشواهد النّحوية)، والأمثلة النّحوية البسيطة التي تقدم للمتعلم اللّغة العربيّة وهذا يدل على القيمة المهمة للمثال المستعمل في تعليم اللّغة العربيّة فكما سبق وأن ذكرنا فالأولوية عند الأندلسيين هو تعلم اللّغة العربيّة، لأنّها لغة علم ودين قيّم. ويقول بن مضاء في الفصل الثالث من كتابه الرّد على النّحاة: تطبيقه للنّحو من غير عامل في باب الاشتغال: من قِبل أنّ الظاهر يتعدى فعله في هذا الباب إلى مضمره، نحو (ظنّهما أخواك منطلقين)، إذا ظنا أنفسهما، ولا يتعدى فعل المضمر إلى الظاهر، نحو قولك (زيداً ظَنَّ عالماً)، إذا ظنَّ نفسه ولكن يتعدى فعل المضمر إلى المضمر، مثل قولك (أظنني ذاهباً). وهذا بناء أيضاً على أنّ المرتفع والمنتصب، ارتفاعه وانتصابه بفعل مضمر، وأما على ترك الإضمار، فإنّ الرفع والنصب جائزان، إلا أنّ ما لا اختلاف فيه أولى مما فيه خلاف، في هذه المسألة، وفي المسألتين المتقدمتين. والإطالةُ في هذه المسائل – وهي مظنونة غير مستعملة، ولا مُحتاج إليها – لا تنبغي لمن رأى أن لا ينظر، إلا فيما تمس الحاجة إليه، وحذفُ هذه وأمثالها من صناعة النحو مقوٍّ لها، ومسهِّل، ومع هذا فالخوض في أمثال هذه المسائل التي تفيد نطقاً أولى من الاشتغال بما لا يفيد نطقاً كقولهم: بمَ نُصِب المفعول: بالفاعل، أم بالفعل، أم بهما!. وتقول (أأنت عبد الله ضربته) الاختيار عند سيبويه رفعُ عبد الله، لأنّ حرف الاستفهام قد حال بينه وبين عبد الله قوله (أنت)، لكنك إن شئت أن تنصبه، كما نصبت (زيداً ضربته)، جاز."٣٤ فالأمثلة التي استعملها بن مضاء تفيد في نطق وتعلّم اللّغة العربية بيسر، فكل ما يقوي ويسهل صناعة النحو مُرّحبٌ به في الأندلس، فالكلام الصحيح وقدرة المتعلم على إيصال رسالته إلى المستمع المثالي فهذا هو المرغوب فيه، فالأمثلة البسيطة هي السبيل إلى ذلك، دون إدخال المتعلمين في المتهات كما أخبرنا بذلك الجاحظ، ويستدل على ذلك بمثال لإمام النحاة سيبويه.

ب- المصطلح النحوي عند بن مالك: يقول في الكلام وما يتألف منه:

٨ – كلامنا لفظ مفيد كاستقم
واسم وفعل ثم حرف الكلم
٩ – واحده كلمة والقول عم
وكلمة بها كلام قد يؤم

وهذا ما أراده بقوله: ..... مفيد كاستقم ... .

كأنّه قال: الكلام لفظ مفيد فائدة تامة، يصح الاكتفاء بها كالفائدة في (استقم) فاكتفى عن تتميم الحد بالتمثيل."٣٥ فكما نلاحظ فهو يقول: فاكتفى عن تتميم الحد بالتمثيل وهذا يعني أنّ المثال يمكن أن نكتفي به لتوضيح الفكرة أو القاعدة النّحوية عند بن مالك. ويقول في موضع آخر: " ولابد للكلام من طرفين: مسند، ومسند إليه، ولا يكونان إلا اسمين نحو: زيد قائم، أو اسمًا وفعلا نحو: قام زيد، ومنه (استقم) فإنّه مركب من فعل أمر، وفاعل: هو ضمير المخاطب، تقديره: استقم أنت.

وقوله: .... واسم وفعل ثم حرف الكلم"٣٦، فهنا نلاحظ أن بن مالك قد قرب المصطلحات النحوية من ذهن المتعلم باستعمال التمثيل. إنّ المثال النّحوي البسيط يقرب القاعدة النحوية من ذهن المتعلم، فكلما كان المثال سهل ويسير وفي متناول المتعلمين، أحبّ المتعلم النحو وبالتالي أحبّ اللّغة العربيّة وأحبّ ناسها وأحب الاسلام والمسلمين، لأنّه يستطيع فهم تعاليم الاسلام وكذلك قراءة القرآن الكريم وحفظه. ولا يجب أن ننسى أنّ هدف علماء الأندلس هو الحفاظ على ريادة اللّغة العربيّة في الأندلس وكذلك الدين الإسلامي.

ج- المصطلح النّحوي عند أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي:

يقول الإمام السهيلي في كتابه نتائج الفكر في النحو حين حديثه عن: " في إضافة الاسم إلى الله عزَّ وجلَّ: والإضافة ثلاثة أقسام: إضافة ملك كقولك: كلام زيد، وإضافة ملابسة ومصاحبة كقولك: سرج الدابة ونحوه، وإضافة تخصيص وهو أن تخصص الاسم بإضافته إلى وصله أو إلى لقب علم، كقولهم: زيد بطة،

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

وفي الوصف: مسجد الجامع، و (جانب الغربي). وفي الحقيقة إضافة الشيء إلى نفسه محال، لا بدّ أن يكون المضاف غير المضاف إليه، ولكن الصفة أفادت معنى ليس في الموصوف، فصرت كأنّك تضيف إلى ذلك المعنى، وفي اللّقب إنّما تضيف المسمى إلى الاسم الثاني، وهو اللّقب، فمعنى (زيد بطة) أي: صاحب هذا اللّقب. فإن قيل: فهلا جاز ذلك في جميع النعوت حتى يقال: زيد القائم، كما تقول: مسجد الجامع؟. قلنا: إنّما فعلت العرب هذا في الوصف المعرفة اللازم للموصوف لزوم اللّقب في الأعلام وأما الوصف الذي لا يثبت كالقائم والقاعد ونحوه فلا يضاف الموصوف إليه، لعدم الفائدة التي قدمنا ذكرها في " زيد بطة "، وهي أنّك تريد إضافة المسمى بالاسم الأول إلى الاسم الثاني لتعرفه بإضافته إليه، فإن كان غير لازم لم تفد إضافته إليه شيئاً نحو: زيد الضاحك، وكذلك إن كان لازماً ولم يكن معرفة نحو: رجل قرشي. فإن قلت: زيد القرشي، كان مثل (جانب الغربي) ، لأنّه لازم معرفة وكذلك: عمرو قفه."[٣٧] نلاحظ مما سبق أنّ السهيلي في حديثه عن: إضافة الاسم إلى الله عزَّ وجلَّ فالسهيلي أراد تقريب هذا المثال من متعلم اللّغة العربيّة فبدلاً من أن يستشهد بالقرآن الكريم، فضل تقديم أمثلة من الحياة العامة في بلاد الأندلس، فيقول: "فمعنى (زيد بطة) أي: صاحب هذا اللّقب"[٣٨] فهذا لقب ربّما موجود في أراضي الأندلس وكل المتعلمين يعلمون ذلك.

الخلاصة:

إنّ إدراج المثال النحوي المصنوع في الدّرس النحوي منهج هام من أجل تيسير النحو، وهو آلية من آليات تقريب الدّرس النحوي من المتعلمين، وإيصال القاعدة النحوية للمتعلم، وإنّ الشاهد النحوي مهم جداً ولكن يجب استعماله مع المتخصصين في تدريس النحو، فكثيراً ما نجد أنّ هذا الشاهد غامض وصعب الفهم فمفرداته غريبة عنا وبالتالي لا يفهمه إلا الأفذاذ، والقلة القليلة من الطلبة، ويكون هذا المشكل حتى عند المختصين، وعليه تتبين لنا قيمة المثال النحوي الذي يُبنى على القاعدة عكس الشاهد النّحوي الذي بُنيت عليه القاعدة النحوية، وللأسف نجد الكثير من كتابنا المعاصرين يستعملون الأمثلة المقدمة من سيبويه دون اللّجوء إلى ما لجأ إليه بن مضاء والسهيلي وبن مالك، فهما يقدمان أمثلة عن سيبويه ولكن لا يمنعهم الأمر من تقريب ذلك المثال بمثال آخر معاصر للمتعلمين عندهم، فهذا دليل على ذكاء أئمة نحاة الأندلس، فهم حقاً يكونون مدرسة نحوية يُقتدى بها، وما أحوجنا إلى تعاليمها في عصرنا الحاضر أين نواجه تعدد لغوي في عُقْرِ ديارنا، والوقت حان ويجب إيجاد سبل ناجعة لتعليم النحو بيُسر دون نفور المتعلمين، فهذه لغتنا ولغة ديننا الحنيف فعلينا أن نكون أنبه من أئمة الأندلس ونأخذ العبر منهم، وكفانا النظر في العموميات ووجب علينا الآن النظر في الجزئيات الأساسيات في تعليم وتعلم النحو العربي، واللّغة العربيّة ككل متكامل، من أجل أولادنا، ومن أجل ديننا، والعالم بأسره.

الاقتراحات:

مما سبق ذكره يمكن أن نقترح بعض التوصيات التي نراها مهمة جداً لصناعة المثال النّحوي الذي لا يمكن الاستغناء عنه في تعلّم وتعليم النّحو العربي:

- المثال آليّة من آليات تقليص الفجوة بين الطالب والنّحو العربيّ وذلك من خلال المثال النّحوي المصنوع المتداول، القريب من الطالب، فلا يشعر باتجاهه بالغربة؛
- أن يكون المثال النّحوي المصنوع ذو قيمة ثقافية اجتماعية؛
- أن تكون المفردات المكونة للمثال النّحوي المصنوع سهلة بسيطة؛
- الابتعاد عن استعمال الشاهد النحوي إلا مع الطلبة المتخصصين في النحو العربي؛
- لا يجب فرض القاعدة على المادة، توخي التيسير دائماً؛

الهوامش:

١ – مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون، تح: درويش الجويدي، ماجستير في اللّغة العربيّة، المكتبة العصرية صيدا بيروت، ط٢: ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، ص ٥٣٦.

٢ – نفسه، ص ٥٣٧.

٣ – نفسه، ص ٥٣٧.

٤ – يوسف عيد، النشَاطُ المعجميّ في الأندلس، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م، نقلاً عن، المقدمة ٤، ١٢٧٨، ص ٣٢.

٥ – نفسه، نقلاً عن: طبقات الزبيدي: ٢٩٦، ص٣٣– ٣٤.

٦ – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ابن منظور)، ج٦، ص٤٨ و٤٩، حرف الذال ذهب، دار صادر سنة النشر: ٢٠٠٣م

٧ – نفسه، نقلاً عن: حاشية الشرواني على التحفة ج١ ص ٣٨.

٨ – نفسه، نقلاً عن: المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد نسخة محفوظة ٢٥ يوليو ٢٠١٧ على موقع واي باك مشين.

٩ – سورة الزمر، الآية: ٩.

١٠ – رواه الترمذي في سننه، ج٧ كتاب العلم، رقم الحديث: ٢٦٥١.

١١ – رواه ابن ماجه في سننه، المقدمة: باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم الحديث: ٢٢٤.

١٢ – يوسف بن علي بن إبراهيم العريني، الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، ص ٢٥، نقلاً عن: المقري، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج١، ص ٢٢٠– ٢٢١.

١٣ – نفسه، ص ٢٦، نقلاً عن: محمد بن عبد الله المراكشي، الذيل والتكملة ، السفر الأول، القسم الثاني، تح: محمد بن شريفة، ص ٤٥٤.

١٤ – رواه الترمزي في سننه، ج٧، كتاب العلم رقم الحديث: ٢٦٨٨

١٥ – رواه ابن ماجة في سننه، المقدمة، باب فضل العلماء، والحث على طلب العلم، رقم الحديث: ٢٤٣

١٦ – يوسف بن علي بن إبراهيم العريني، الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، ص ١٠١، نقلاً عن: عماد الدين خليل: دراسات في السيرة، ط١٠، بيروت مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ١٤٩.

١٧ – نفسه، ص١٠١، نقلاً عن: البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٠، وبن الأثير: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢٩.

١٨ – يوسف بن علي بن إبراهيم العريني، الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، ص ١٠٢، نقلاً عن: ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الاسلامي، ط١، بغداد: مطبعة الارشاد، ١٩٧٣م، ص ٩.

١٩ – نفسه، ص ١٠٧، نقلاً عن: محمد بن عبد الله المراكشي، الذيل والتكملة ، السفر الأول، القسم الثاني، تح: محمد بن شريفة، ص محمد بن عبد الله المراكشي، الذيل والتكملة ، السفر الأول، القسم الثاني، تح: محمد بن شريفة، ص٣٢١.

٢٠ – نفسه، ص ١٠٧، نقلاً عن: محمد بن عبد الله المراكشي، الذيل والتكملة ، السفر الأول، القسم الأول، تح: محمد بن شريفة، ص محمد بن عبد الله المراكشي، الذيل والتكملة ، السفر الأول، القسم الثاني، تح: محمد بن شريفة، ص ٣٩٦– ٣٩٧.

٢١ – نفسه، ص ١٠٧، نقلاً عن: ابن الأبار: التكملة، ج٢، ص ٨٦٧.

٢٢ – سورة البقرة الآيتان: ١٥٩– ١٦٠.

٢٣ – رواه أبو داود والترمذي.

٢٤ – رواه ابن ماجه في باب ما يرجى من البركة في البكور، كتاب التجارب، رقم الحديث: ٢٢٣٦

٢٥ – يوسف بن علي بن إبراهيم العريني، الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، ص ٣٢، نقلاً عن: محمد محمود الراميني، كتاب العلم والعلماء، عمان، ١٣٨٦ه، ص ١٢٧.

٢٦ – أنظر، المرجع السابق، ص ٣٢– ٣٣.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

٢٧ – معجم المصطلحات النّحوية والصرفية، محمد سمير اللبدي، دار الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٨٥، ص ١١٩.

٢٨ – نفسه، ص ٢٠٨.

٢٩ – أصول التفكير النحوي، د. علي أبو المكارم، منشورات الجامعة الليبية، ١٩٧٣، ص ٢٤٦.

٣٠ – معجم المعاني، www. Almaany.com، مادة: المثال.

٣١ – الرّد عَلى النّحاة، أحمد بن عبد الرحمن بن محمد، ابن مَضَاء، ابن عمير اللخمي القرطبي، أبو العباس (المتوفى: ٥٩٢هـ)، الدكتور محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، ط١، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م، ص٧٩.

٣٢ – نفسه، ص٧٩.

٣٣ – نفسه، ص٨١– ٨٤.

٣٤ – نفسه، ص ١٠٣.

٣٥ – شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، بدر الدين محمد ابن الإمام جمال الدين محمد بن مالك (ت ٦٨٦ هـ)، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م، ص ٥.

٣٦ – – نفسه، ص ٥.

٣٧ – أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ)، تائج الفكر في النَّحو دار الكتب العلمية – بيروت، ط١: ١٤١٢ – ١٩٩٢ م، ص ٢٨– ٢٩.

٣٨ – نفسه، ص ٢٨.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2